

محمد مهران السيد طائر الشمس

تشرق الشمس كل صباح على البشر.. تحرق هذا بناها.. وتدفع ذاك
بأشعتها الحانية.. لكنها دائماً تشرق.. ولا يفوتها أن تقيم هذا العرس
النهاري كل يوم بلا إبطاء.

وهذا طائر أحرقت الشمس لأنه ولد في صعيد مصر عام 1927 في
محافظة سوهاج.. تلك المحافظة التي مدت التاريخ السياسي والأدبي بعدد
من الأعلام والمثقفين.. من بينهم محمد مهران السيد.

لقد تلقى مهران دراسته الأولية هناك في سوهاج.. ثم حصل على
دبلوم المعلمين عام 1947.

لكنه لم يعمل بالتدريس.. وإنما جذبته الصحافة.. فاستجاب لها وعمل
في مجلات وصحف كثيرة منها: الثقافة - الشعر - الموقف العربي - الإذاعة
والتليفزيون.

وانخرط في التنظيم الشيوعي المصري.. ومن ثم لاقى كما لاقى رفاقه
السجن والتعذيب والتشرد.. وبدأت السلطة تراقبه وتعد عليه خطواته
وتبحث في قصائده وكلماته.

ولمهران عدة أعمال شعرية هي: بدلاً من الكذب - الدم في الحقائق -
ثرثرة لا اعتذر عنها - زمن الرطانات - طائر الشمس.

وله مسرحيتان هما الحربة والسهم - حكاية من وادى الملح.



ويبدو أن السلطة حينها كانت تعتقل شاعراً أو أديباً لم تكن تهدف في الحقيقة إلى التعذيب الجسدي.. وإنما كانت تهدف إلى تعذيب الروح.. فالمدع يمتلك إحساساً عميقاً بحب الذات وحب الحياة.. ولا بد - لكى تشعره بالضآلة - أن تضعف أو تهين هذا الإحساس فيه.

ويعبر الشاعر عن تلك الحال في قصيدته (قمر الغنوة والآه) بقوله:

ساقوه بليل مفقوء العينين

غريب السحنة والقسمات

زجوه بأرض غطاها البوم

وفاضت بالحيات

صمتاً.. فتروس الآلة تخرج أيديها الآن

جحظت عيناه

خرجت من أذنيه الآه

وتأرجح في صمت أثقل من كل ذنوب عباد الله

ثم يقول:

أواه.. أواه

يا قمر العمر

يا قمر الشعر

يا قمر الغنوة والآه

كنت ومازلت أقول



رحم الله العمر المحمول

على أكتاف المجهول

هكذا صار العمر بالنسبة للشاعر مجهولاً.. تتحكم فيه السلطة.. ولا يملك هو أن يشكله كما يهوى ويريد.

ولأنه شاعر عميق الإحساس.. فهو يندب حظ الشعر أيضاً.. لكنه لا يخاصمه ولا يفقد ولاءه وحبه له.. فالشعر حياته وزاده الخاص.. ولأنه وطني أيضاً فلن يتنازل عن موقفه من الواقع الرديء:

لست على دين معاوية

الضائع بين تجارته.. ونقوش الجدران

وما يتقيأه الشعراء التجار

ومحظيات القصر

لكني من أتباع أبي ذر

أتبع خفيه إلى قلب جهنم

وعيون الصحراء الحمئة

أتلقف منه الإيذاء والحرف

وأرشف من هذا الفيض الرباني

وصايا المشحودة كسيوف الله



هكذا يعلن موقفه الوطني.. فهو يتبع خطى أبى ذر.. ذلك الصحابي
الذى كان يدعو إلى ما يشبه الاشتراكية بين البشر.. ويقف إلى جانب
الفقراء والضعفاء.

ومهران لا يحب الشعراء - التجار - الذين يتاجرون بالكلمة.. والكلمة
دائماً مقدسة شريفة.. ومن يبيعها يصبح خائناً لنفسه ولوطنه.. وهو يتحمل
مشقة الحفاظ على كلمته وموقفه وقلمه.. ولهذا يصرخ فى قصيدته (وا..
قلماه) قائلاً:

يفجؤنى النحاس.. فأنفر كالخيل الوحشية

أنشر معرفتى

كالصوت الصارخ فى البرية

أصهل.. حتى تتداخل أحجار الأبنية الوردية

أرتاع.. ولكنى لا أملك إلا أن..

أتقدم

إنسان ما.. مكتوب أن يرتجف الآن

وأن يتألم

واقلماه.. هذا علم مسيلمة الكذاب

يتقدم جيش الردة

فأعدو محبرة من دمع لا ينفد

وصحافاً لا تعرف مرق الضأن



ولا لبن الشاه

وبيوت الشعر المجتاحة في كل فلاة

والشاعر مشغول بصدق الكلمة رافض للزيف والخيانة.. ويشعر
بالكبرياء برغم ما يلاقيه من الصعاب التي تمثلت في الاضطهاد والسجن
والتشريد ويعبر عن ذلك في قصيدته (تعب الشموع) فيقول:

أنا لست مغروراً

ولكنى ربيب الكبرياء

وسليل من لبسوا العمامة وانضوا تحت الإباء

ورضعت من ألق الترفع ما يفيض عن الإناء

وأنا ابن أقوام

أضلوا في سبيل الانحناء

قدرى.. قصائد من صميم الطهر

لم تعرف نباح الوقت

أو هذا الغناء

تعبت شموع الليل من كذب المراقص

والبغايا..

واحتدام الجنس بين تلاحم الأقدام

يجرفها العواء



هكذا صرح الشاعر بما يؤمن به.. وهو في الحقيقة لم يتخل عن هذا
الموقف برغم معاناته الفقر والحاجة طوال حياته.. وبرغم تشرده وسجنه
لكنه ظل في خندقه الخاص يشدو كلماته حتى إنه يرى الموت في كل مكان..
فلا يعبأ به.

وقد يسأله من يسأله عن جدوى هذا الموقف فيرد عليه:

يا شيخي العارف بالأسرار

لن أتملص من جرمي وأسوق الأعذار

يكفى أنى مازلت أفتش عن أمسى

الضائع بين الانقراض

يكفى أنى..

مازلت ألقى الإعراض

وأنا جئتك معتلاً

أجهدنى القىء

أكلتنى الأملاح

ومزقنى الخوف

جئتك لا أرجو

أكثر من حق الضيف

ترى هل وجد مهران السيد خلاصه أم أنه توهم هذا.. أغلب الظن أنه
رأى الحياة بلا طائل ففضل أن يتركها في عام 2000 غير نادم على شئ.